أ.أحلام العلمي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة: الاخوة منتوري قسنطينة 1

مقياس: مقاربات نقدية معاصرة
السداسي الرابع
محاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس
تخصص: دراسات أدبية

محاضرة : جماليات التلقي

1-قـــــراءة في حدود المـــــــصطلح :

اهتمت نظرية "**القراءة والتلقي**" بالقارئ الذي هُمش قدرا من الزمن ؛ حيث شكل محور اهتمامها بعدما كان من «**أكبر منسي نظريات الأدب الكلاسيكية** »؛ فجاءت نظرية "**القراءة والتلقي** " لتعلن اهتمامها به فدعى كل من "إيزر" و"ياوس" إلى ضرورة منح أفق جديد للعمل الأدبي بعيدا عن سلطة المؤلف وحيادية النص؛ لذا عمدت "**مدرسة كونسطانس**" إلى الجمع بين لحظة الإنتاج الخاصة بالمؤلف (التي ينُتج فيها النص) وبين لحظة التلقي لذا استندت "**نظرية القراءة والتلقي**" على أسس أولها: التأثر بالعمل الأدبي عن طريق القراءة (***La Lecture***) هذا النسق الذي اتجه نحوه "**إيزر**" وقام بدراسته، أما ثانيها فقد كان التلقي المحور الذي تبناه وتابعه "**ياوس**" في توجهه.

2- مفهـــــوم التـــــلقي:

ورغم تركيز هذه النظرية على التتابع التاريخي إلا أن تعريف (التلقي) يتداخل مع ماهية (المتلقي) في العديد من الدراسات النقدية؛ كونه يمثل جوهر هذا المصطلح، بالمقابل لم يكتسب مصطلح "**التلقي**" المفهوم الأدبي الدقيق الذي يميزه عن غيره من المصطلحات حيث تعالق مع تسميات وترجمات مختلفة كان من بينها: (**الاستجابة**)،(**الاستقبال**) (**التأثير**)، (**التقبل**)و(**الاتصال**)؛ وهي مصطلحات متعددة لعملية تفاعلية واحدة.

3-إجـــــراءات المنـــــــهج عنـــــــد "ياوس":

عمد "**ياوس**" من خلال نظريته إلى صياغة مجموعة من الإجراءات التي تمكن القارئ/المتلقي من فهم العمل الأدبي وإدراكه،وتتمثل في:

1-أفق الانتظار (***Horizon D'attente***):

يُعد "أفق الانتظار " واحد من أهم الركائز المنهجية لنظرية "**ياوس**"؛ إذ يتأسس فهم العمل الأدبي على المكتسبات السوسيولوجية للقارئ المـــُطلع على مختلف الأعمال الأدبية، وهذا ما تقوم عليه "**جمالية التلقي** " التي تبحث عن التصورات المتعاقبة للقارئ من خلال احتكاكه المكرور بعديد النصوص الأدبية لتشكيل معاني جديدة عن طريق "أفق الانتظار" .تشكّل مفهوم "**أفق الانتظار**" لدى "**ياوس**" على منحيين متكاملين هما: "التخييب"و"الاستجابة"، ولا يمكن لأي باحث/ قارئ تحديد هذا المفهوم إلا من خلالهما ولعل هذا ما سنوضحه في العنصر الآتي:

1-1-التخييب والاستجابة (***Déception / Confirmation***):

اهتم " ياوس " بإعادة صياغة تاريخ الأدب من خلال الاهتمام بسيرورة التلقي لدى القارئ/المتلقي انطلاقا من " **أفق الانتظار** " ؛ هذا الإجراء القائم أساسا على فعل التلقي والفهم؛ بمعنى الانتقال مباشرة من إبداع مؤلف النص نحو تأويلات متعددة يكون القارئ المسؤول الأول والأخير عنها. ففي احتكاك القارئ بالنص قد يتقبل ما يقدمه كما قد يخالفه؛ إذ «**يتميز الأفق الذي يحمله العمل الأدبي بخاصيتين تأثيريتين أساسيتين هما: التخييب *Déception* ثم الاستجابة أو التأكيد *Confirmation*. وقد استوحى "ياوس" مفهوم التخييب من كارل بوبر *Karl Popper* الذي ذهب إلى أن العامل الأساسي في إنجاز أي مشروع علمي بصفة خاصة أو في أي تجربة إنسانية بصفة عامة، يتمثل في تخييب الانتظار *Déception de l'attente*** »؛ بالمقابل فإن الغموض الذي يعتري بعض الأعمال قد يُحدث نوعا من الصدام والمشاكسة الداخلية لدى القارئ؛ فقد تَنتهك منهجه أو تفكيره وتخالف توقعاته؛ وهذا ما يُولد نوعا من التخييب لعدم تَقَبُلِهِ لفحوى العمل الأدبي وبذلك يفتح المجال أمام حوارية القارئ مع فحوى العمل الأدبي لإيجاد أفق آخر يناسب ما يبحث عنه.

2-المسافة الجمالية: *(La Distance Esthétique)*: تهدف نظرية "ياوس" إلى إعطاء نظرة جديدة للعمل الأدبي الواحد من أجل الوصول إلى المعنى المرجو،وقد أطلق "ياوس" على المساحة الفاصلة بين ما يقدمه النص وما يتوقعه القارئ /المتلقي مصطلح "**المسافة الجمالية** " الذي يمثل « **المسافة بين أفق الانتظار الموجود سلفا والعمل الجديد**»؛ فالعمل الأدبي لحظة صدوره موجه نحو صنفين من القراء، صنف مستجيب وصنف رافض؛ فإن اتفق مع تطلعاتهم تحدث الاستجابة، وقد وصف "ياوس" هذا التلقي بالسلبي كونه لا يضيف شيئا إلى القارئ؛ وإما أن يرْفض الصنف الثاني من القراء ما يقدمه العمل الأدبي كونه لا يتوافق مع أفق توقعاتهم ولا يسايرها؛ فكلما كان الخرق أكبر حسب "ياوس" كلما كان التأثير أقوى لأن المسافة الجمالية هي وليدة الخيبة، فالرفض هو المنطلق الأول لنجاح العمل الأدبي.ولعل هذا ما شكل نقطة جوهرية في صلب نظريته؛ فكلما زاد النفور والاختلاف بين النص والقارئ زادت قيمة النص الفنية.

3-تغـــــير الأفـــــق: (*changement d'horizon*): يستند القارئ في تواصله مع العمل الأدبي على أرشيفه الثقافي؛ حيث بإمكانه أن يتقبل العمل بحكم التقليد الفني الذي اعتاد عليه، كما قد يشد انتباهه ف «**يحدث له شيء من الدهشة والمخالفة لما قد توقعه أو قد يكون النص مطابقا لما توقعه، فيحدث لأفقه تغيير أو تصحيح أو تعديل، أو يقتصر على إعادة إنتاجه**»[4] لأن قيمة العمل الأدبي تكمن في الأثر الذي يحدثه في نفس متلقيه وهو ما يسمح بتشكيل أفق جديد عن طريق اكتساب تجربة ووعي مغايرين يساهمان في بناء تاريخ أدبي متجدد مع كل قراءة فيكون بذلك مفهوم (تغير الأفق) هو بناء لأفق جديد مختلف نتيجة اكتساب القارئ وعيا جديدا.

4- اندمـــــاج الآفـــــاق *(Fusion D'horizons)* : من بين الآليات التي اعتمدها "**ياوس**" في مشروع نظريته للتلقي مفهوم "**اندماج الآفاق**" وهو المفهوم الذي يسمح للقارئ بفهم العمل استنادا إلى قراءاته المتعاقبة. يرى "**ياوس**" أن فهم القارئ للنص الأدبي مرهون باستجابته له، ومن خلال تأويلاته المتراكمة ينصهر أفقه الماضي مع الحاضر من أجل فهم هذا النص؛ ولهذا وظف "**ياوس**" مقولة "**اندماج الآفاق**" «**لتفسير ظاهرة "تراكم الفهم" والاختلافات الهرمينوطيقية التي يعرفها العمل الأدبي خلال سيرورة التلقيات المتتالية، ويستخدمها من الجهة الأخرى كأساس لفهم التاريخ الجديد**»؛ وبتفاعل واندماج الآفاق يتولد معنا جديدا يستند إلى الماضي والحاضر معا من أجل تطوير الفهم المتغير من جيل إلى آخر عبر تاريخ التلقيات.

5-المنعطـف الـــــتاريخي (*Tournant Historique*):

يعود أصل مصطلح " المنعطف التاريخي " الذي اعتمد عليه " ياوس " إلى " هانس بلومبرج " (***Hans Blumbergue***) الذي وضعه للتأريخ والفلسفة، في حين استعاره " ياوس" لإظهار التطور الذي فرضته الأحداث التاريخية على الأعمال الأدبية من خلال«**ظهور أسئلة جديدة أو تعارض الأسئلة القديمة مع الأجوبة الحديثة المتطلبة** »؛ إذ تفرض كل مرحلة زمنية جملة من التغييرات تهدف إلى إرساء آفاق جديدة للقارئ بإعطاء نظرة تتماشى مع التحولات التي فرضها التطور التاريخي ؛ بحيث يشكل المنعطف التاريخي «**تحولا مفاجئا للآفاق في زمن محدد، وفي ظروف حضارية وثقافية معينة، فإنه يُحدث تعارض بين أفق انتظار المتلقي والعمل الجديد** »؛ ليكون تعايش الماضي والحاضر لدى القارئ/المتلقي مؤسسا على العلاقة التواصلية التي تربطه بهما، كون المنعطف التاريخي متعلق بأفق انتظاره .

6-المتـــــعة الجـــــمالية (*Le plaisir esthétique*):

تقوم العلاقة بين النص الأدبي و(القارئ/المتلقي) على أساس المتعة الجمالية التي تقوم حسب "ياوس" « **على لحظتين في اللحظة الأولى(...) يحدث استسلام (*Hingabe*) مباشر من الذات للموضوع؛ أما اللحظة الثانية،التي تخص المتعة الجمالية في صيغة (...)"الاستمتاع الذاتي الناشئ عن الاستمتاع بشيء آخر** "»؛ ولعل سبب هذا الارتياح والرضا الذي يتملك (القارئ/المتلقي) جراء تقابله مع النص الأدبي وتجاوبه نتيجة "**لذة النص**" التي تسمح للقارئ/المتلقي بالتجاوب مع النص من خلال الموروث أوالمتعارف عليه.

4-إجـــــراءات المنـــــــهج عند إيزر:

ركز "**إيزر**" في نظريته على فعل القراءة الناتج عن تفاعل القارئ مع النص الأدبي ودوره في تفعيله وتأويله وتتبع معناه وذلك من خلال جملة من الآليات التي سطرها "إيزر" تسهيلا لأطر هذا الفعل ومحدداته؛ وهي تباعا كالآتي:

2-1-القارئ الضمني: (*Le lecteur implicite*):

يشكل "القارئ الضمني" محور نظرية "القراءة والتلقي" وعنصرا هاما فيها فقد استحدث مفهوم "القارئ الضمني " كإجراء هام في صلب النص الأدبي بعد انتقال الدراسات الأدبية من الاهتمام بالمؤلف إلى النص نحو "القارئ "؛ فالقارئ الضمني حسب ما تقدم به واضعه "**ايزر**": فرضية مُتخيلة يضعها الكاتب صوب عينيه ؛ إذ يفترض أي عمل أدبي قارئا يستقبل رسالة ما،سواء أكان هذا الأخير مثقفا أم ساذجا.فالقارئ الضمني نموذج نصي لا يمت للواقع بصلة؛ يعيد إنتاج المعنى للقارئ الواقعي بأبعاد جديدة مغايرة عما طرحه النص أول مرة؛ أي أثناء قراءة القارئ الواقعي/الحقيقي له يُمثل القارئ الضمني بذلك نموذجا تفعيليا ينشأ لحظة تلاقي النص مع القارئ الواقعي/الحقيقي.

2-2-السجل النصي : (*Le Répertoire du Texte*) :

يستند أي نص في بناء هيكله على مرجعية ثقافية يتزود بها ؛ فهو لا يبني هويته من العدم، وهو ما أطلق عليه "**إيزر**" "**السجل النصي** " إذ يعتمد أي نص على ثقافة سابقة تُمثل مجموعة من الحمولات المعرفية الثقافية والاجتماعية يتواصل بها مع قُرائه؛ أي علاقة النص بالواقع؛ حيث يضم « **كل من السجل والنص أعرافا وتقاليد معروفة (...)هذه العناصر التي لا ترتبط فقط بنصوص داخلية لكن أيضا بمعايير اجتماعية وتاريخية في سياق اجتماعي وثقافي أكثر توسعا (...)فالسجل هو الجزء المُقوِم للنص والمشِير تحديدا إلى ما هو خارج عنه**».

يحمل النص بين طياته أنساقا دلالية واقعية موجودة من قبل وهذا ما يجعله ناقلا لجزء كبير من المعايير الواقعية؛ لكن الاختلاف يكمن في اشتغاله على آليتين هما:

2- 2-1-الانتقاء : تقوم آلية "**الانتقاء**" على أساس الاختيار ؛ فالنص لا ينقل الواقع نقلا حرفيا، بل يكون نقله مؤسسا عن طريق عملية اختيار معيار أوحدث من الواقع يشكل «**الواجهة الخلفية التي جاءت منها والتي تسمح لنا بفهم دلالاتها الجديدة**».

2-2-2-التشويه: يرجع النص إلى "الواجهة الخلفية " لتشكيل مدلوله ؛ وفي خضم هذه الوقائع يعمد على "تشويهها"؛ حيث يبتعد عن التشويه السلبي ليحقق هدفه ؛ فهو ينقل الواقع وأحداثه بمتغيرات تجسد بنيته (بنية الواقع)، وذلك بعدم الإبقاء على الأحداث أوالمجريات كما هي بل بصيغة دلالات أخرى يريدها؛ أي تحويلها انطلاقا من الأعراف والتقاليد الاجتماعية « ***Les Conventions sociales*** » التي تُفصل عن المرجع الأصلي لها وتُحاور في نمط مختلف؛ مع حفاظها على الصلة الاجتماعية بين النص والقارئ في ضوء السياق

السوسيولوجي« ***Le Cotexte Sociologique*** » الذي يمثل التجربة الخام التي ينطلق منها الاثنان للظفر بالمعنى المقصود وإعادة بنائه.

2-3-الاستراتيجيات النصية : (***Les Stratégies Textuelles***) :

لكي يتحقق التفاعل بين القارئ والنص وجب أن يكون "**السجل** " الذي يحمله هذا النص على ارتباط وثيق مع عناصره التي تتحدد عن طريق " فعل القراءة " بوصفه نشاطا ذاتيا؛ فحرص "**إيزر** " في دراسته لعلاقة النص مع القارئ على بناء هيكل يجسد هذا الطرح وأكد أن من بين البنيات التي راهنت عليها الاستراتيجيات لفهم هذه العلاقة :

2- 3-1-القاعدة الخلفية والقاعدة الأمامية : (***le rapport entre le premier plan et l'arrière plan***) :

تُمثل القاعدة الخلفية المرجعية الواقعية لسجل النص،في حين تشكل القاعدة الأمامية النص الجديد المـُقدم للقارئ؛ أي مجاله البصري ويُعد انفصال عناصر القاعدتين (الخلفية والأمامية) عن بعضهما البعض « **شرطا أساسيا لعمليتي التلقي والإدراك**»؛ فهما تعتمدان دائما على الكفاءة المعرفية التي يمتلكها القارئ للتواصل مع ما يقدمه النص عبر القاعدة الأمامية التي تحيله بالضرورة إلى الخلفية الأصلية (الواقعية).

2-3 -2-بنية الموضوع والأفق: ***La structure du thème et de l'horizon***):

يسعى القارئ أثناء تواصله مع النص الأدبي إلى تشكيل المفهوم العام أوبالأحرى الموضوع الجمالي، انطلاقا من عمليتي الفهم والتأويل اللتين يسعى من خلالهما إلى الإدراك الجمالي للنص.

حدد "**إيزر**" ثلاث آفاق للنص مقابل أفق القارئ ليكون الأفق بذلك المسافة الجمالية التي تفصل ما قدمه النص وما يستقبله القارئ ،من خلال اعتماد "إيزر" على الآفاق الآتية:

2-3-2-1-أفق السارد (***La perspective du narrateur***):

ينطلق القارئ في حواره مع النص من « **تعليقات السارد**» ؛ وهي المعلومات التي يقدمها له بوصفه العالِم الوحيد بمجريات الأحداث وتفاصيل الشخصيات .

2-3-2-2-أفق الشخصيات ***(La perspective des personnages)***:

يحمل أي نص بين ثناياه ساردا ينقل أخبار شخصياته، ويوضح الرؤية للقارئ من خلال إبراز «**الحوارات بين الشخصيات الأساسية والثانوية** » .

2-3-2-3-أفق الحدث أوالحبكة(***La perspective de l'action ou de l'intrigue***):

وهو ما تحمله الأحداث من مغزى يتفاعل معه القارئ .

2-3-2-4-أفق القارئ (***La perspective du lecteur***):

لا يستطيع القارئ أن يشكل منظورا خاصا به إلا من خلال هيكلة أفكاره وفقا لمنظور كل من السارد، الشخصيات والحدث التي تؤسس للمعنى ضمنيا؛ فليس بإمكان القارئ إدراك النص دفعة واحدة؛ إلا من خلال « **فعل القراءة وانتقاله من منظور إلى آخر**» ؛ لاكتساب المفهوم العام للنص وهذا ما يُطلق عليه "**وجهة النظر الجوالة** " (***Le point de vue mobile***) التي ينتهجها القارئ للربط بين المنظورات السابقة .

2-4-أماكن اللا تحديد/البياض (*Lieux d'indéterminations*) (*Le Blanc*):

حيث شكل البياض لدى "**إيزر**" الفراغ أوالانفصال بين المنظورات التي يعرضها النص على القارئ لاستخراج الأنشطة التي تسمح له بالتعرف عليه؛ أي التعرف على ما لم يقله النص، لينشأ المعنى انطلاقا من عدم التوافق (الغموض) بينهما؛ فانبثاق البياض ناتج عن الحوار بين كليهما (**النص/القارئ**).

للتوسع اكثر ينظر :

فولفغانغ أيرز: فعل القراءة: نظرية جمالية التجاوب في الادب :تر:حميد الحمداني والجيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، المغرب،دط،1995.

هانس روبيرت ياوس: جمالية من أجل تأويل جديد للنص الادب، ترجمة وتقديم: رشيد بنحدو ،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ،القاهرة،مصر،ط1 ،2003.

سعيد عمري :الرواية من منظور نظرية التلقي مع نموذج تحليلي حوله رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة ،فاس،المغرب ،ط1 ،2009.

بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول ...وتطبيقات،المركز الثقافي العربي ،الدارالبيضاء،المغرب،بيروت ،لبنان،ط1 ،2001.